رواية

عبور

"الزئير الأخير"

مولاي أحمد مولاي عبد الرحمن

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

عنتر بن شداد

هواء هائج..

نشوة متقدة..

رجل يهوي..

إنه سقوط حر..

قبل اصطدامه بالأرض على بعد 750م، قام بفتح المظلة ليقع في جاذبية السماء مع الأرض، و يترنح في أحضان الرياح شارعا روحه على سواعد موت محتمل، و لكنه هبط سالما في شموخ الصقر، و تنهد من لسعة الأدرينالين في جسمه المرتعش، أخفى المظلة في حقيبته و استودعها ظهره المشدود تمتطيه بثبات، ثم انطلق يسبر أغوار الغابة الفتية، كان يعرف الطرق جيدا كما يعرف أصابع يده.. تغلغل فيها يتتبع مرامه بين الأشجار، و يتحين فتحات الضوء فرصا يستغلها للعبور.. جاس الطريق بشتى منحنياته حتى انبثق على فسحة من السهول، يتوسطها منزل هادئ المنظر.. بسيط الشكل، عفوي البناء.. مبني بمنطق الهندسة القروية للشام في زمن السلم و الحب.. له فناء رحب الأحضان، يطيب في العين منظر بستانه البهيج. ابتسم من خالص امتنان الشوق في نفسه، و أسرع إلى بيته السعيد، دخل ذائع السلام في أرجاء المكان، ليشفي غليل حنينه بارتداده إليه من جلسة الفناء، نظر إليها تفضح ضياء ثغرها في بسمة مشوقة، و أمعن النظر مغلوبا أن يرتد إليه الطرف، مفتونا للمرة الألف بمحاسن السمت فيه.. لم تكن امرأة عادية كما يراها.. بل كانت امرأة من ظلال الجنة، تقف على مشارف الأبدية، كأن عشقها لا يزول مهما تمادى به الزمن.. بل لا ينتقص.. بل لا يكف عن التزايد.. تلك هي كما تعيش فيه.. تلك هي زوجته، ركن إليها بقبلة تقدير على الجبهة المضيئة، و نقر أنفها ملاطفا و سألها عن أمه، فعلم انها تصلي الضحى فانتهى ينتظر عند رجليها إلى حيث تقوم، كطفل شاقته محاريب الأمومة، و ترك زوجته تستقبل بشاشة البستان في سكينتها المعتادة، تسرد في نفسها معطيات شوق مغبون بقلة الوصل، هذا زوحها يأخذ حلم السماء جام وقته، فلا تكاد تراه إلا سويعات حتى يعود لممارسة رياضته، و هو قد عاد من

أمريكا مؤخرا بفكر لم تعهده و تستسغه، بل هي لا تصدق معقولية أن يكون قد استماله هذا الفكر.. يدعو إلى السلم و التعايش، و يطالب باستخدام منطق الحوار في حق العموم.. كأنه ليس زوجها الذي تعرف.. غسلت بلاد الأنياب الجميلة عقله الجهادي.. لا، لا يمكن أن تكون قد غسلته من فلسطينيته، ليس غبيا ليمحي في معسول قول يعض، للأمر سره. و ذلك أخوها منشغل بصيد الحرية في معابر الموت، و يغتال الراحة بالمثابرة المستمرة من أجل وطن ممتحن بالخذلان الأخوي.. يد القريب لا تصله إلا بالسوء، و الغريب ينهش فيه بمخلب الحقد و الظلم، فليس لأبنائه إلا اتباع دواعي البر في الجهاد، و الاتكال المطلق على الله.. هي فخورة أن أخوها ممن نذروا حياتهم فداء لأرض تبلغوا منها العشق المستميت، و لكن حاجتها للوصل تفرض شوقها المستمر إليه.

أما الأم فكانت تختم صلاتها بالسلام و الدعاء لتلتفت على طفلها الرجل.. مسدت شعره في حنان فائض، بينما هو يستقي من وقارها بسمة بريئة، يجلس في حضرتها كقط مسرور، متصاغر في تواضعه من جلال هيبتها في قلبه، كانت منتهاه في الرضى إذ كانت تتمثل اسمها في شخصيته "سدرة" ، حدثت حيث لاتزال تربت على رأسه بسؤال يختلج نفسها المتوترة:

"غادي ولدي، ما سرك؟"

- أي سر يا يما؟

- سر انتقالك بنا إلى هنا، و ما سمعته من تغيير في شخصيتك.. يا ولدي، إنهم لو أخبروني أن رجال الدنيا على كثرة جمعهم قد استكانوا لأفكار التطبيع ما وزنتك فيهم خيارا، لأني موقنة أن شوكة الوطن فيك لن تنكسر.. فأخبرني بسرك..

- أي سر يا حبيبتي.. أنا فقط أدركت أن العنف خيار ضعيف.. أوليس السلم أمعن في التغيير..

- و هل ترانا إلا مسالمين يا غادي.. إنما أولاد هذه الأرض يتساقطون دونها لبلوغ السلم فيها.. و لكننا نريد سلما لا هوانا

- و لماذا نتساقط يا أمي.. ألا يجوز لنا سلم في المصافحة

- صه.. انكتم.. إياك أن تعيدها.. و تأكد يا ولدي أني لن أصدق ادعاءك هذا.. ولدي لن يمسح ندبة الوطن في قلبه، و لن يداوي جرحه بكذبة التطبيع.. افعل يا غادي ما شئت، ولن أسألك، و لكن لا تهدر بكلام سوء كهذا.

سكت غادي و لم يقل شيئا.. لن يكسر لأمه كلمة ولا قلبا، سيدعها تعتقد ما تريد، قام من عندها و قبل يديها و رأسها و خرج إلى جوار زوجته، جلس بجانب "روح" يحاول محادثتها متسليا عن جرعة الثقل التي انتابته من غضبة أمه، و لكنها لم تنعم له بالتناسي، و أعادته بسؤالها المعاتب إلى حقل انزعاجه: "ماذا قالت لك خالتي؟" عرف أنه لن يجد مهربا من عنادها في التساؤل، فالتجأ لمابشرة الحديث، و قال مستلطفا عطفها:
- إنها تعتب علي أني أنتحي السلم.. هل أصبح السلم شيئا يعاب به!

- ألم تخبرك فطنتك أن رجلا يمتطي الريح ليعود إلى بيته لا يناسبه السلم

أنهت جملتها و انتفضت من مكانها داخلة إلى المنزل، تاركة إياه في غياهب الضياع من نفسه، عالقا في نزعاتها المتشابكة.. لماذا لا يتفهمونه حقا، هو ذهب إلى الخارج و أدرك حقيقة أوسع مما يدركونه، إن العداء ينبغي أن ينتهي بالتفاهم على أمر مشترك، و لكن أنى لهم أن يفهموا.. هو لازالا يحترم لهم رأيهم، لازال يفهم شعور الفقد لديهم.. هو فقط يريد تغييرا بسيطا في الخطة.. هو قرر أن يسقط سقوطا حرا.

*****

هبت رياح من يمين الشجرة الكبيرة.. سقطت تفاحة حمراء و أخذت تتدحرج إلى منتصف الشارع.. التقطها شاب قبل أن تدهسها سيارة، كان شابا أبيض البشرة، رفيع القامة، سمح الملامح، ذلك الشاب هو فادي، قام فادي بفرك التفاحة على ثيابه النظيفة و خطى الشارع، و بالكاد تخطاه حتى صرخت عجلات السيارة من ضغطة الفرامل السريعة.. خرج صاحب السيارة مغاضبا في شجار حاد، و ترك سيارته على الطريق، و توقفت خلفه سيارة أخرى و خلفها أخرى.. اجتمع الناس في الشارع و ازدحم المكان.. كان في السيارة الخامسة خلف سيارة الرجل رجلين، أخرج أحدهما رأسه يناظر الزحام، ثم عاد قليلا بالسيارة للخلف و دور المقود باتجاه اليسار، و غاص في شارع آخر، التحق بالطريق الرئيسي و استدار إلى اليمين و انطلق نحو أفق المغيب، سأله صديقه: "متى سنصل يا ناهض؟"

- حين تتوقف عن التذمر يا عزام
- تقصد أننا سنسير للأبد
- هلا لزمت الصمت قليلا
- حسنا.. هلا لزمت أنت السرعة قليلا.. سنتأخر عن الجماعة

سكت ناهض و سرح في الأفق و هو يمسك المقود بيده اليمنى، و يستند بمرفقه الأيسر على نافذة السيارة و يضع سبابته على فهمه.. زاد السرعة، نظر إليه عزام في سرحانه: "فيم تفكر" .. لم يجبه، بل تنهد مثقلا و تابع تفكيره..

- إنه غادي.. صحيح

التفت إليه قليلا و أجاب بفتور:

- صحيح
- إنه على وشك العبور، فعلام الحزن
- أتمزح يا عزام..
- بل أحسد يا ناهض..

قالها عزام بخالص شوقه، ثم استند على مقعده و التفت نحو النافذة محدقا في الأفق، و قال بخفوت "متى سنعبر نحن أيضا يا ناهض؟"

لم يجب ناهض.. لم يلح عزام.. و دخل الصمت جليسا ثالثا يتحدث لغة الأفكار.. وتحدثت السيارة في أذن الريح لغة السرعة حتى خرجت من الحي.. ثم من المدينة.. ابتعدت.. ابتعدت كثيرا، ترجلت عن الطريق نحو اليمين، و هامت في الأدغال بعيدا عن الأعين حتى وصلت وجهتها.. نزل الإثنين و افترقا.. ركب عزام مكان ناهض و عاد بالسيارة، و توغل ناهض أكثر في المكان حتى التحق بفرقة النسور، إنها فرقة كونتها القيادة خصيصا لمهمة السقوط الحر.. الفرقة التي جمعها حلم غادي المجنون، فرقة متخصصة بعبور السماء و القنص من هناك، حيث أحضان الهواء لا تبتعث سكونا أبدا.. كانوا تسعة و تسعون مقاتل في مقتبل الجنون، يحتويهم عمر ال٢٠٠٠ مقسما عليهم جميعا، ما عرفوا للدنيا قط طعم انكسار إلا أوان سجود أو ركوع، شبت نفوسهم عالية المطالب، متعالية على فكرة الخنوع، و أجسادهم قد نبتت بين الصخر و النار مستجيبة لمطلب الحرية و السلام المنتزع، انضم إليهم ناهض و هم يجلسون معا في شكل مجموعات تشترك كل واحدة منها أطراف حديث مختلف عن الأخريات، أمضوا بذلك وقتا يتسامرون في شتات منظم إلى أن وقف رامي ينشد في المجموعة التي بها ناهض، امتدت الأعناق.. أطرقت القلوب.. تاقت الأفئدة.. رامي؛ بلبل الفريق.. فتى من أصول جزائرية أتى جده إلى فلسطين عقب تحرر بلده ليواصل الكفاح ضد عدوان اليهود، أتى طالبا للشهادة في بلد كما اعتقد هو الوحيد المتبقي من جذور الجهاد الحق.. قاتل جده عبد الصمد في صفوف الجزائريين الأول ضد الفرنسيين، حاملا حلم الحرية في قلبه المفطور على معانيها، و لكن الحرية عنده لم تكن مقتصرة على بلده، لأن نفسه المطبوعة بشوقها الدائم إلى زمن العز الإسلامي، كانت تتوق باستمرار إلى تحرير العالم كله من سطوة الطغاة، و حين انتهت تلك الحرب بين الجزائر و فرنسا شعر ببعض المقت أنها انتهت على شروط المستعمر نفسه، ضاقت به نفسه، و زاده المقت جرعة بما يسمع من أخبار اليهود

المتطاولين إلى أراض إسلامية مقدسة، فلم يلبث كثيرا أن ذهب ليلتحق بكتائب الجهاديين هناك، تزوج في فلسطين و أنجب فاضل، ابنه السائر على درب الشرف المختوم بعزة الشهادة، و ها هو حفيده رامي يرث حب القومية الإسلامية و ينتهج القتال سبيلا للسلام العزيز، حفيده النسر ذو الصوت البلبي، وقف البلبل يغني جروح أرضه و قضيته، وقف يشدو قصة فلسطينية علقت في القلوب و الذاكرة الجمعية للفلسطينيين، وقف يشدو مَعْنيا بشخص تبخر في غيبيات الوجود، يقتص الجرح من الشوق المحمول على أكتاف الجميل، جميل أمة لفتى فلسطيني عاش نجارا يوما ما، و حملته الشجاعة وصفا لها، و كان من ذوي الحياء الذين هم في غير شأن القبح، بل هو لم يكن في غير شأن واحد من الحب و الفكر.. إنه حب الأرض.. حب فلسطين، يحكى أن هذا الشاب كان فاره الطول، له عينين غارقتين في الكحل، و له شعر يعتنق مذهب السواد في لونه، كأن لهذا الفتى مع الليل قصة، كان محبوبا، مرغوبا، تريده الفتيات زوجا، و تريده الأمهات لفتياتهن، و هو يريد فلسطين فقط، يريدها أما و زوجة و أرضا.. عمل نجارا في بلد ليست أرض مولده، و لكنها قطعة من حبيبته، و كان يدخر أجره الذي يتقاضاه، و في يوم تراءت فيه الحقديات في قلوب اليهود الجبانه، تواروا فيه خلف البنادق و الدروع و هاجموا القطعة التي احتضنته، فاستشهد ثلاثة من شبانها، يحكى أنه اختفى ليومين و عاد بسر لم يطلع عليه أحد، و بعد فترة هوجمت البلدة مرة أخرى، فأخرج خمسة بنادق ووزعها و قام مع الرجال بهجوم مضاد، هذه الحركة ألهبت مكامن العزة في نفوس الناس، فابتاعت النساء حليهن و اشترى الرجال بثمنه السلاح، و لما تكررت الهجمة كان الرد عليها قويا، قاتل الفتى بضراوة مستميتة، و أنقذ الكثير من المصابين، و تلاشى.. بحثت عنه الأعين كثيرا و تاقت إليه الأفئدة عقب هذه الحرب، و لكن لم يكن هناك.. لم يبق منه إلا ذكراه المحمودة، و الأغنية المتولدة من الفخر به و الشوق له، تلك الأغنية التي يشدو بها رامي فتلتف حوله كل الكتيبة في مجموعة واحدة، شدا رامي بكل غزارة الشعور في صوته:

يا ظريف الطول وقف توا اقولك
رايح عالغربة وبلادك احسنلك
خايف يا ظريف تروح وتتملك
وتعاشر الغير وتنساني انا”
احنا اتفرقنا وعالله الرجوع
والمفرق والمجمع ربنا
يا ظريف الطول مالي ومالكم
وابتليته بالهوى وش حالكم
وان كان عشرة غيرنا طابت ليكم
خبرونا تندبر حالنا
يا ظريف الطول وقف توا اقولك
رايح عالغربة وبلادك احسنلك
خايف يا ظريف تروح وتتملك
وتعاشر الغير وتنساني انا

لم تكتمل الأغنية في فمه إلا و الهيجان يصطرخ الجمع الطروب، و توالت سمرتهم حوله قبل أن يتأخر الليل فيتناهوا إلى مضاجعهم في استعداد ليوم زاخر بالتدريبات

*****

تحرك عزام بالسيارة نحو الطريق الرئيسي، قطع عليه عدة أميال ثم دار بالمحرك إلي اليسار ليقطع أميالا أخرى، ابتعد كثيرا حتى وصل وجهته، كانت تنتظره مروحية و مفتاح.. مفتاح هو الطيار الخاص بالمهمة التي تم تكليفه بها.. شاب ترتديه الثلاثين حلة عمرها، يستوي فيه منظر البهاء طولا و عرضا، مفتول دون أن تبالغ عضلاته بما يشينها، و فاره دون أن يتخطى حدود استحسان العين، وجهه مدور كدرهم ذهبي طبعه الصفرة الخالصة، عيناه صغيرتان على قدر حياءه، و أنفه من شكل عينيه؛ مستدير و ضئيل كخرزة السبحة، و أسنانه بيضاء متساوية الحجم، ترتسم كقوس صغير صلب، و قوامه المتكامل يتوهج بالمهابة، و هوسه الوحيد هو عبور السماء بالطائرة. استقبل مفتاح عزام على صدر ليلة ثاكلة البدر، وَلُودةً بالنجم، فأعدا عدة المبيت، تعشيا و استلقيا يتنهدان التعب، مرت دقائق يتنصتان فيها على همسات الكون الباعثة على سلام الجسد، الموقظة بشكل غريب هواجس الفكر و طواغيت الأحلام، المستدعية كلام الليل المؤنس، و في مثل هذا الجو لا يروق لعزام أن يلتحفه السكوت، فكان لابد أن يتحدث، نظر إلى مفتاح بجانب عينه يتلصص حاله، التقط مفتاح الخلسة ففهم رغبته، ابتسم محتفظا بوقار حضوره و افترس فضوله:

- لازلت مستيقظا يا عزام.. ماذا تريد
- ويحك يا مفتاح.. أأنت ساحر.. كيف رأيتني في هذا الظلام؟
- عيونك كعيون القط.. بريقها في الظلام يفضحك
- حقا أيها المتذاكي.. أليس الأسد تشبيها أفضل!
- حسنا أيها الأسد.. ماذا تريد؟
- لا شيء بالضبط.. أردت أن أتحدث فقط
- عماذا؟
- لا شيء يا أخي.. لا شيء.. أووففف.. أنت حقا شخص آلي..

سكت عزام قليلا و لكنه لم يستطع أن يطيل في مجاراة الصمت الملتحف بالمكان:

• مفتاح، قل لي، منذ متى و نحن أصدقاء

• و هل نحن أصدقاء

• لا.. لسنا كذلك.. لقد ضقت بك أيها الجاف.. هيا نم و أكرمني بصمتك

ضحك مفتاح من انزعاجه المفتعل، و لكنه لم يحاول استرضاءه، فهو يعلم أن الوقت ليس ملائما لسهرة على دردشات عزام، فعاقبة الأمر وخيمة على حالة التدريب في الغد، تقلب على جنبه و تغطى يستدر نومة تعده للاستيقاظ المبكر، أما عزام فأخذ يلتفت من جنب إلى جنب حتى غافله النعاس فنام و لم يصحو إلا على صوت مفتاح يؤذن للصبح، صليا معا و تناولا فطورا سريعا ثم وضبا المكان و أخفيا الأمتعة في السيارة، ثم قاما يستعدان للعمل، و لم يمضيا كثيرا حتى انبثق عليهما من الأدغال رجل ممشوق القامة، يماثل طول مفتاح و لكنه أقرب منه للنحافة المعتدلة، و أدق منه في تفاصيل الوجه، رغم أن به حياء إلا أن به جرأة تشي بقيادية طبعه، لوح إليهما من اتجاه الغابة التي كانت تبعد قرابة الخمسة و عشرين مترا، تصافحوا.. تعانقوا.. تبادلوا بعض أطراف حديث سريع:

• كيف أصبحت يا غادي

• بحمدلله.. تمام

• الحمدلله.. احمد الله دائما أنك لا تبيت مع هذا الجاف

• إذن فقد أزعجته بثرثرتك يا عزام

• ماذا تقول يا غادي

ضحك مفتاح، و غادي.. و تصنع عزام بعض الغضب قبل أن يستسلم لضحكاتهما، و دخل الجميع إلى المروحية، ثم طافت بهم عاليا، و اكتمل حديثهم في السماء،

• حسنا يا عزام.. مالذي أتى بك اليوم؟

• عيونك الحلوة

• ظريف

- حسنا.. إنها مهمة جديدة..
- مهمة! ألم نتفق أني سأتفرغ لمهمة السقوط الحر
- تلك مهمة العبور يا رجل.. و هذه المهمة الصغيرة هي تدريب صغير لك.. و عموما هذه أوامر القيادة..إن شئت فاعصها
- حسنا و ما تفاصيل المهمة
- هيا إلى القفز.. سنتحدث بعد التدريب

وقف غادي و قد ارتدى نظارة تقاوم الهواء، و تفقد المظلة على ظهره ثم هوى ساقطا.. هوى حرا.. هوى منتشيا..

*****

تناعس الليل في الغابة و حواليها، و أُغمضت عيون كثيرة كانت ترقب في حركية يومها، ونام الكون على جناح السكون، و لكن أكوانا أخرى ضجت في نواص ثلاثة داخل البيت الوحيد، زوجة تستكين لمتلازمة الفقد في حياتها، و تشتعل به فكرا شرودا، و زوج تستفيض به أحلامه الزاهرة في منبت روحه، و طرقه الجديدة نحو السلام، ثم الأم الموجوعة من وساوس الريبة في قلبها المرهف، ترفض أن تصدق أن قلب وحيدها قد خان التربة و التربية، و عاثت في عقله خمريات الحضارات المترفة بالهوان فسادها، هذا أمر لا مرد له في المنطق، كيف بعد أعوام التربية الكثيرة، و سنوات الجهاد العامرة بالفخر و المجد، يحنو رأسه لأفكار هشة كهذه، ثلاثون عاما في ظلال النار يغامر فيها الموت برحابة صدره، تنفثها فكرة عابرة عن سلام هش، لا يمكن.. أبعد ان سار على نهج أبيه في مجابهة العدوان، و رص أكتافه في أكتاف إخوانه للذود عن كرامة الإسلام، أبعد أن كشر عن أنيابه بين صفوف الأسود، و شاركهم صيحة الزئير الأخير، يعود منقادا بأفكار العفريت سام، هذا أمر رفضه كل من قلبها و عقلها على حد السواء، و لكنهما لم يركنا لراحة بسبب السر الذي يخفيه باعتقادها، هي ترى أنه لابد أن يكون قد ادعى هذا الأمر لسبب ما، و تحتاجه أن يقر بذلك ليرتاح بالها. أما غادي فملكوتيته الفكرية في عالم مختلف، الأسلوب الذي سينفذ به خطته ليبرهن للعالم أحقية منطقه هو ما يشغل باله، وفي جانبه مهجة ملتهبة بالشوق إليه و الخوف عليه، أفكار ثلاثة تلتحف الليل في سقوط حر نحو يقين بعيد.. قرارات النفوس مرتجة بخيالات من الموت تختلف، و كل يرتسم نوع الموت الذي يشغله، بالخوف، بالنشوة، أو بالنكران، تراتب الجنون بأصنافه يمضغه الليل بفك مرتجف، كأن تلك الأفكار المتقدة هي كوابيس تستيقظ في أحلام هذا الليل المسكين، ثم يستيقظ الليل عن صبح نشيط إلا من زاوية تلك النفوس الحيارى، و تلك العيون المنتفخة لأن النوم لم يصبغ جفونها بما يكفي من الراحة، و الأجساد لم ترتوي من أريحية السكنى لليلها، و قام الثلاثة إلى الصلاة يؤمهم غادي في ركعتين خاشعتين، لم يدخر أي منهم دعوة مما يختلج نفسه، فكانت سجداتهم مليئة بالرغبة إلى الله، و انتهوا بعدها إلى راحة من الأمر يستفيض بها

المكان، قامت روح تعد فطور زوجها المقبل على الخروج، و غادي جلس إلى أمه يتأنس ببرها، ثم انضمت روح إلى مجلس الأنس تستجلي عن نفسها بعض الثقل المنجثم فيها، تداوروا الحديث بلذة القرب و المؤانسة، فتناكتوا و ضحكوا و تهللت تلك الوجوه قليلا، و ارتاحت مناطق مضغوطة في النفوس، و أخيرا قام غادي ليخرج، قبل رأس أمه و يديها، قبل رأس زوجته، و قبل أين يخطو من الباب استوقفته أمه، كانت سدرة لاتزال تركن إلى فكرة أنه متحامل في التمثيل، و تريده أن ينفض عنها أي احتمال شك فيه "غادي ولدي، أنت تمثل صحيح" ، التفت غادي يفرم في نفسه كل هَبّة صمود قبالة وجه أمه المشفق.. لم يتحمل كسرها أبدا، و انتظر بعض العون من زوجته و لكن وجهها كان أمعن رجاء من وجه أمه، فانتهى به الثقل إلى نفض الحمل عن صدره بالعزم، عاد في خطوات قليلة، جلس عند أمه و قبل رأسها، نظر إليها بابتسامة تشي بثقته فيها: "أنت على حق يا أمي.. أنا أخفي سرا.. جئت بكم إلى هنا لأمضي أياما ربما تكون هي الأخيرة من عمري مع أعز الناس في حياتي.. أنا مقدم على عملية جهادية صعبة، لهذا أتدرب كل يوم على السقوط الحر، كان ينبغي أن يبقى الأمر سرا، ولكن قلبي لا يتحمل نظراتكما المنكسرة.. ابنك يا أمي لا يخون عبق الأرض في روحه، ابنك لا يرمي حق إخوته المظلومين خلف ظهره.. ابن الحاج عماد لا يستسلم لمنطق السلام المشبوه، و لا يرضى أن يغسل عار الاحتلال بغير الدم" ثم التفت إلى زوجته الباكية من فرط سعادتها بكلماته، و قال بحنو خافت تنطبع فيه الثقة "أنت على حق يا روح.. زوجك يركب الريح، فلا يليق به السلم المخنث أبدا"

قام غادي، قبل رأس أمه.. قبل رأس زوحته.. خرج إلى السهول.. توغل في الأدغال.. انبثق في الجهة المقابلة.. ركب المروحية التي كانت تنتظره.. غاص معها في ثغر السماء، لبس مظلته، ثم هوى ساقطا،.. إنه سعيد.. إنه مغتبط.. إنه حر.. إنه منتشي..

*****

أمل من عادة..

أرهق من روتين..

و لكنها العافية..

العافية التي ينعمون بها و لا يستقرؤون حالة البذاخة من وجودهم فيها، يشتكون الملل في كآبة، والبرد و الحر في غنج ، و يتأففون أن أعمالهم لا تعجبهم، يبحثون عن أن شيء يشعرهم بالحياة، ينتشون بالحزن على أمور تافهة، غيرةٌ متصنعة، خيانة بلا مقاييس، أي شيء ينشطون به الجو المنطفئ جراء الوفرة و البذخ..

فبربهم كيف يشتكون..؟ كان السؤال يطرق ذهنه بقوة بينما يشد وثاق القناع في المروحية، و يتناول البندقية من عزام و الأفكار لاتزال تتقافز في عقله، ألا يشعر أولئك الجاحدون بنعمة الدفء و الأمان، يتسكعون في شوارعهم بحرية مطلقة، و يتناولون ما شاءت نفوسهم من مرح الدنيا، يسرحون بكل اتجاه حتى يواتيهم التعب، ثم يرتمون على أسرتهم غارقين في سبات لا يخشى صاحبه غدرة القصف و لا قسوة الموت.

إنه يذكرها حين أخبرته بفتور مكابر؛ متى يا غادي تصبح الحياة سهلة في نيويورك، كل شيء يحدث بسرعة، لا نكاد نمسك اليوم حتى ينتهي، ألا تلاحظ معي ذلك؟..

- حقا يا ماري..

ماري، مرافقة مكتظة بالحياة، تريد تجربة كل شيء و في كل وقت، لا تكتفي أبدا من "أريد" "سأفعل"، و قد قابلها لأول مرة على الطائرة حيث كانت رفيقته في رحلته من فلسطين إلى واشنطن، ممتن أن وجودها معه سهل له الكثير من إجراءات السفر، و ذلك لأنها يهودية بالتأكيد، و قد جرتهما هذه الرحلة إلى صداقة في الغربة، صداقة لا حميمية فيها، فهو رجل ملتزم، و هي امرأة متحررة، و لحوحة، و كثيرة الأسئلة، تسأل عن كل شيء و بغباء مستميت، امرأة لم تذق رهبة الموت أبدا، لم تعش في كنف التوجس، سألته ذات مرة ؛ ترى كيف سيكون شعورك إن كنت على مشارف الموت؟ كان سؤالا أعمق من أن تقصد طرحه

بتمعن، و لكن شاعريتها في الحديث و حب إضفاء العمق على شخصيتها يجعلها تأخذ الكلام بطابع الحكمة المتصنعة، سألها ؛

- ألم تحاولي يوما أن تجربي الوصول لتلك المرحلة..؟

- لا قطعا.. و لكنك جربت، لهذا أسألك، ألست تمارس كل يوم رياضة السقوط الحر!.. أنت إذا تمر بجوار الموت كل يوم..

كاد أن يصرخ فيها، "لم لم تجربي المرور بحطام دورنا، لم لم تأخذي جولة بين جثمان الأطفال و جثث الشيوخ، لم لم تكلفي نفسك عناء البحث في أنقاضنا، حينها ستجدين الموت في كل اتجاه، ستقابلينه عند كل منعرج، و حينها يمكنك أن تسأليه أنت كيف يشعر رواده.." و لكن أسمعت لو ناديت حيا، فمن سيسمع تلك الصرخة التي كتم في صدره مهما صدحت بها أوتاره الصوتية، لهذا اعتاض عنها بإجابة مختصرة "أشعر بالنشوة" يعرف أنها الإجابة التي أرادت أن تسمع، أرادت كلاما يجعل جسمها يقشعر، فأعطاها ما تريد، ثم سرح في أفق مختلف.

تنهد و هو يمسك باب المروحية في استعداد ليقفز، حيث لاح وجهها له للمرة الأخيرة، كان لقاءهما قبيل الرجوع للوطن، وطنه.. كانت تبتسم وتذيل ابتسامتها بجملة طويلة النفس "هل أخبرك بمصادفة جميلة، ستقام مسابقة في بلادنا للسقوط الحر، سيحضر المسابقة كبار أعيان البلاد، سياسيون و مفكرون و قادة عسكريون، و زوجي هو المسؤول عن المسابقة، و هو الضابط المكلف بحماية الضيوف، يمكنني أن أجعلك تشارك أنت و من تريد من أصدقاءك.. ما رأيك"

غص بحنق من عبارة "بلادنا"، فتمنى أن يرد لها الغصة غصتين، تمنى أن يخبرها عن كل شيء يتعلق بالسباق الذي تحدثت عنه. عن المصافات الغريبة في رحلته، من أول الرسالة العشوائية التي تلقاها عبر النت و التي تدعوه للمشاركة في سباق للسقوط الحر في واشنطن ، و التي يعرف أنها لم تكن عشوائية أبدا، إلى صدفة لقائهما المدبرة، و حتى إخبارها له بهذا السباق، و في هذا الوقت بالتحديد، تمنى أن يخبرها أنه على دراية بكل تلك الخطة التي

يحيكونها للتخلص منه، وبل و أن يخبرها أن الخطة برمتها كانت إيحاء من القيادة لإحضار الورقة الرابحة للاحتلال، و تصفيتها، لإخراج زوجها هي من وكره.. و لكنه تحمل الغصة و امتص غضبه، و أجابها في رزانة و هدوء: "تتحدثين عن السقوط الحر، كيف يمكنني إذا أن أتجاهل، كيف يمكنني أن أشارك..؟

- دع الأمر لي و لا تقلق، المهم أن توافق

- حسنا.. و متى سيقام هذا السبق..؟

- في الثامن من سبتمبر..

- إذا.. سأجمع بعض أصدقائي من هواة السقوط الحر و أخبرك..

- فليكن لقاؤنا في الأسبوع القادم

هز رأسه نافضا كل تلك الذكريات.. شد يديه على "غول"، بندقية المقاومة الفتاكة، عيار ١٤،٥ملم.. يمكنها القنص من مدى ٢٠٠٠متر، احتضنها بقوة و هوى مستقيما كعمود حديدي يشق الهواء بإصراره، ثم فتح المظلة ليتعلق في السماء ممسكا ببندقيته، صوبها نحو الهدف البعيد، عاينه، ثم أطلق الرصاصة الفتاكة، فأخذت تشق طريقها نحو الهدف حتى اسقرت في جبهته، كانت مهمته أن يتخلص من الكتيبة الاسرائيلية الحارسة للمعبر من أجل يتمكن الفريق المكلف من إدخال المعونات العالقة، عشر طلقات سريعة قبل أن ينزل عن المدى المطلوب، أنهى بها جل الكتيبة، كان قد قفز رامي من خلفه فأجهز على من تبقى.. هبطا في سلام آمنين و تركا بقية المهمة للفريق الآخر.

*****

"سدرة".. الأم عظيمة القدر في خاطر وليدها و معتبره، السيدة الستينية في العمر، تجلس لا تمل التفكر في ملكوت الله و عظاته، و تتودد للذاكرة أحيانا كثيرة ببعض الأنس للتراضي، و من تلك الأحيان هذه اللحظة الماثلة لأنات الشوق و شناته، غار عليها الحنين في أخريات صبح تستمحي الشمسُ نديات نسيمه، و تجتر به إلى ضحى فتي، فعرض الثغر الباسم لها، و السبحة العتيقة، و روائح الفول المتجولة في الشارع، مختلطة بروائح الياسمين في حديقة البيت الشامي الشامخ، تذكرت الضحكة الخشنة و اليمين المتغنج و هما يختصمان حولها

- بنتي رح تدرس طب يا جميل، انت سامع
- هههههه، يا بنت الأكابر مو هيك الكلام، هاذي بنتي رح تدرس أدب و تكتب رواية عن تاريخ أجدادي
- و رب الكعبة ما تدرس غير طب

و تمضي الأيام و لم تدرس البنت لا الطب و لا الأدب، بل درست الشريعة و أصبحت الأستاذة سدرة، لم يغضب أي من الأبوين بقرارها، بل لم يفرضا عليها رأيا، و كانا مصطلحين على رأيها الوسط، و راق لجميل دائما أن يشاكس زوجته بعد ذلك بعكسية الواقع لما أرادت

- إيييه.. بنتي ما درست طب يا سلطانة
- و لا أدب و احيات عيون أبو سدرة الشمتان

كان الجو العائلي بسيط و هادئ، و مغمور بالسعادة الحرة من أي شوائب أو تنغيص، أم حنون و شغوفة بكل واجبات البيت، و أب لا يقل حنوا و لا مسؤولية، و بنت وحيدة مغمورة بكل هذا الحنان و الاهتمام، لا أحد يفرض عليها ما تكره، و لا هي تقدم على ما يكهره والداها، و تواصلت بها الذكريات تتهادى معها على فقاعات التاريخ الناعمة، تتذكر حلو الشباب في رحاب القدس و حواديتها القديمة، و أيام المر فيها بلذاذة النضال فيه، النضال الذي قادها

للزواج من أبو غادي، أحد قيادي الثورة و الجهاديين الأُوَل، لتنجب منه فلذة كبدها الذي تربى بين أم تضمر جبال كره للمحتل اليهودي، و لا تدخر جهدا لإظهار ما تضمر في طريقة حديثها و أسلوب تربيتها، و بين أب نذر العمر لقتال أعداء دينه ووطنه، و لم يفق غادي على أي من جدوده الذبن اغتالتهم نزوات الصهيون المتفرقعة في أرجاء القدس، إنما كان يسمع عنهم من والديه، و كبر غادي ليلتحق بالجهاديين على نهج والده و عاشت أمه تسانده كما كانت تساند والده قبل استشهاده في إحدى عملياته، و أصبح غادي من قياديي الجبهات الجهادية الفتاكة، أصبح رصاصة لا تنفك تخترق نحور العدو بعنف جريء، و أسس فرقة خاصة من الطيارين و هواة القفز بالمظلة من أبناء الوطن الراغبين في الجهاد، و تفرعت من فرقته فرق أخرى تدربت كلها على أيديهم، لينتهج الفلسطينيون نهجا جديدا للحرب، و هي حرب السماء، غادي الجهادي، هو غادي الطفل البار بأمه، هو طيف خواطرها السابح في ذكرياتها الآن..تنحنحت سدرة قليلا متعبة من طول جلستها، ثم قامت تصلي الضحى.

و في حديقة البيت كانت تجلس روح، تغزل من شذاها معابر بهجة شيقة، و تنسج خيوط ذكريات يختلط فيها الزمن كشبكة صياد، و تختلج منوعات المشاعر معابر نفسها اللهوفة، تارة تستبيح منها متجهات الشوق، و تارة تجرفها نحو الخوف من ضبابية مستقبلها المتوتر، كلاهما، أخوها و زوجها، يسكنان الغياب على الدوام، و يتربص بهما الموت عند كل منعطف، و بينهما تقف حائرة الشعور، مرتبكة الفكر، تحضرها صور مخلوطة في بعضها عن الجمع و الفرقة، تعبرها روائح الورد معجونة في روائح الدماء، أخوها ناهض، ها هو يقف بلحيته الأنيقة، و ابتسامته السمحة، ينظر إليها بعينين زرقاوين، يرتشفهما بياض تتوسده حمرة خفيفة، و شعره الكثيف قد لعقته آلة الحلاقة من جانبيه، يقف بطوله المنتهي دون المترين، تكسبه عضلاته البارزة من تحت "الشورت" هيبة الأسود، و تضفي عليه ابتسامته الصافية وقار الأبوة، ها هو يضحك في حنو و يمزح بمقدار محسوب من الكلام، يلقي نصف نكتة و يترك الباقي لأن معناها قد اتضح، و يلخص النصيحة في عبارة أو عبارتين، وربما

يضمنها في نصف نكتته، ها هو سعيد يغمره الامتنان بأخته و صديقه المقرب، صديق عمره و طفولته، ها هما معا يتشاجران كالعادة و يضحكان في نفس الآن، ثم ها هما، ها هما..ها هما غارقين في الصمت و الدماء، تعاند هذه الصورة في ذهنها، و تحاول طردها بكل ما لها من جهد باستحضار ماض أجمل، كأيامها الألى مثلا مع غادي، كانت تعرفه جيدا من خلال أحاديث ناهض، كلامه عنه كان مشحونا بالتوقير و الاحترام، أيامهما معا، مهماتهما المجنونه، تضحياتهما الملهمة، نقل ذلك إحساسا بالاحترام لغادي، ليس لها هي فقط، بل إلى أمها و أبيها أيضا، و تذكر عندما قدم غادي ذات مساء ممطر مع ناهض، و بات معهم تلك الليلة السخية بالماء و الحب، أحاديثه، حركاته، نظراته العابرة، حتى مشيته و تحركاته، كل شيء فيه سحرها إلى النخاع، كان حييا، قل ما ينظر إليها، و لكن حين ينظر يعجز أن يخفي بشاشة روحه الولهى، تذكر أنه بعد أن غادر بيوم جاءها ناهض يستشيرها في أمر زواجهما "روح عزيزتي، غادي صديقي الغالي، أجله و أحترمه، و أفتخر به، و يشرفني أن أناسبه، و لكنك أغلى و أعز، و أحترم قرارك و ميول قلبك، إن كنت ترين أنه لا يروقك فلا أحد سيرغمك على شيء" ، لم تستوعب الأمر واضحا في البداية، و لكنها بينما تسترجع كلامه و تتدبره لم تستطع أن تخفي توتر السعادة في وجهها الحميراء، لم تجب بشيء غير تعبيراتها المستبشره، و لم يكن أخوها يحتاج غير ذلك ليفهم، و يُسر، و يبلغ أبويه برغبة صديقه بمصاهرتهما، تعبرها الخواطر طوعا و كرها، فيسعدها ما تطوع من ماضيها الجميل، و يقلقها ما تنكر من مستقبلها المتواري في الغيب، هي تدرك أن احتمال أن تفقد عزيزيها في مهمة ما هو أكثر الاحتمالات جوازا في خضم هذه الظروف القهرية، و حيث هذين الاثنين مستميتان في سبيل الوطن، بقدر فخرها بهما بقدر خوفها عليهما، و بقدر قلقها من شعور الفقد الأبدي بعدهما، تعلو بها الأفكار و تهبط كمد و زجر يرقصان على صدر البحر، و بقيت عالقة في تلك الرقصة الكونية حتى طلعت شمس عمرها، إنه هو، بنظرة الوله الماكثة في عينيه عند كل مرة يراها بها، تلك النظرة تنفث في كوامنها برد الحب و سلامه، و تحرزها من كل عابر خوف أو

قلق، و ها هو يلقي السلام و يستقبل منها رده، و ها هو كعادته يقبل رأسها و يسأل عن أمه، ثم ينقر أنفها و يدخل، كم هو جميل في لباقة عشقه، كم تحبه هي بكل جارحة فيها، و ها هي تقوم لتشرع في إعداد الطعام حتى يجهز قبل الظهر، لأنه سيغادر حينها ليتدرب من جديد على عبور السماء، تُرى إلى أين سيقوده هذا المعبر في النهاية؟.. أين سيعبر غادي؟

*****

اسم المهمة: الزئير الأخير

نوع المهمة: عبور السماء

توقيت المهمة: ٨-٩-٢٠٢٤ /١٢:٣٠ص

في فناء منزله البسيط، و بين خليط الروائح الفواحة من كل نوع ورد زرعته زوجته، جلس غادي يتأمل القصاصة الصغيرة بين يديه، و يفكر في غده المغمور بالأمل، و أخذ يتأكد من التفاصيل في ذهنه، يريد ليطمئن على أن الأمور تجري كما تم التخطيط له، أخبرته ماري أنه يسمح لفريق مكلف من ٢٥ شخصا بالمشاركة، و سيتم توفير مروحياتهم من قبل الحكومة الأمريكية التي ترعى هذا السباق، و سيتم أيضا توفير المظلات، كانت حكومة الاحتلال تخطط لكل تفصيلة من أجل التخلص من غادي و فرقته بشكل لا يثير ضجة إعلامية، و لم يكن في حسبانها أن الخطة قد حيكت مسبقا من قبل قيادة المقاومة، والشخصية التي اقترحت الخطة على الحكومة و التي هي من شخصياتها السامية قد قامت بذلك استجابة لمفاوضة سرية مع القيادة، و الشرط أن تحرر المقاومة حبيبها الأسير، و الذي تغافلت حكومتها كثيرا عن إطلاق سراحه في أي مفاوضات، و قد كانت مهمتها الأخيرة بأن تساعد في تهريب ثلاثة من بندقية الغول لإدخالها في الطائرات.

كل شيء كان يجري بسلاسة من أجل الغد، فغدا هو اليوم المنتظر للتخلص من عبء ثقيل على أكتاف المقاومة، و إحداث بلبلة كبيرة داخل الكيان الصهيوني، و إرباك قراراته، و خلق فجوة ضخمة في كيانه العسكري و السياسي..

غدا هو يوم الفصل..

شعر بزوجته إلى جنبه.. نظر إليها.. انحنت تحتضن رأسه المتدفق بالقلق و الحلم.. قبلته ليهدأ ضجيجه "تأخر الليل يا غادي.. ألا ندخل للنام!"

*****

- غادي..

- ديفيد..

- كم انتظرت هذا اللقاء بفارغ صبري..

- حقا!.. و أنا أيضا كنت أنتظر لقاءك، و لكني كنت أتخيلك أكثر وسامة عندما وصفتك زوجكتك..

قهقه ديفيد و هو يحيط غادي بذراعه: "تعرف النساء يا غادي، لديهن خيال واسع" اتجه الاثنين إلى إحدى المروحيات، أشار ديفيد "تفضل يا غادي" دخل غادي، و دخل ديفيد معه، جلس أمامه و ابتسم بخبث، حلقت الطائرة و تبعتها باقي المروحيات، و عندما استقرت في باطن الجو، كانت كل مروحية في منطقتها المطلوبة، ٢٥ طائرة، و في كل واحدة منها متسابقين، يهودي و مسلم، و طيار، نظر غادي في عيني ديفيد الصغيرتين و هما ترمشان مكرا و بغضا، يتطاير منهما الحقد القديم ذاته، و الغدر نفسه الذي يلازم جنس اليهود في كل تاريخ، نظرة الاستعلاء و المكابرة، و اعتبار الأجناس الأخرى كلها دونية، وكان ينظر إلى غادي ثم يتحاشى التحديق في عينيه، لأن موجة القشعريرة تجري في جسده كلما التقت عيونهما، كانت نظرة غادي باردة و هادئة، مليئة بالثقة و اللامبالاة، جريئة إلى الحد الذي لا يستوعبه قلب ديفيد الضعيف، و طاهرة للحد الذي لا تتحمله روحه الملطخة بدماء الأبرياء، فاستشاط غيظا من ثقته، من سكونه، من برود أعصابه، فصك أسنانه و هو يتكلف الكلام و يسأل:

-أتعرف لم كل هذه الشخصيات المهمة هنا اليوم..؟

ابتسم غادي: - ليشاهدوك تخسر السباق الذي طلبت تنظيمه..

قهقه ديفيد: كم أنت بسيط يا غادي!.. أتعتقد حقا أننا في سباق، تفقد مظلتك.. إنها تالفة، و

كذلك كل مظلات أصدقائك..

- و لماذا تخبرني بذلك الآن.. أتريد مني ألا أقفز؟.. تخاف علي، يا لك من طيب القلب

- لم يحن دورك بعد.. نحتاج إليك حيا.. هذا هو الأمر.. لن تتمكن من القفز دون مظلة، و هذه الطائرة ستهبط وسط كتيبة مدربة ولن تتمكن من الهرب

- ألا تخشى أن أقتلك قبل أن تهبط الطائرة..

قهقه ديفيد بعصبية:

- و أين سلاحك يا غادي!.. أتنتظر أن يكون في الطائرة، تحلم، صديقتك لم تدخل سلاحا.. ولم تكن لتهربه أبدا، لقد كنتم بيادق في خطتي منذ البداية، و الخطة تشرف على نهايتها..

ضحك غادي بثقة، اغتاظ دفيد أكثر، صاح في هياج:

- ماذا يضحكك و أنت على مشارف نهايتك.. و كل أحلامك تنهار أمامك..

- أتعتقد حقا أن اغتيالك كان خطتنا.. خيبت ظني في ذكائك..

- ماذا تقصد

- فكرة اغتيالك كانت إلهاء لتركز عليها كل اهتمامك، و البندقيات قد أكملت مهمتها بإتقان..(ضحك غادي) حتى بندقياتنا أكثر ذكاء منك يا ديفيد

- تحاول خداعي.. أهذا يأسك يتحدث؟.. وماذا قد تكون مهمتك غير اغتيالي؟

وقف غادي بسرعة و انحنى على أذنه ليهمس له.. و من تلك الانحناءة بدء الجد.. جحظت عينا ديفيد من الرعب، دفع غادي بكل ما أوتي من قوة نحو باب المروحية، سقط غادي، و لكن ديفيد لايزال مرعوبا.. اهتزت المروحية، تعطلت محركاتها، انتفض ديفيد في هلع.. ماذا حدث؟.. شعر بخفة في جنبه الأيسر تحسسه، أين مسدسه؟، غادي.. انحنى بسرعة، كانت أغبى فكرة أقدم عليها في حياته.. حياته التي اختممت بتلك الانحناءة، اتسعت حدقتا عينيه و الدم يسيل من ثقب جبهته، كان آخر منظر يشاهده هو منظر غادي متكور على المسدس، رمى غادي المسدس من يده، و هوى كالقذيفة و هو يبتسم.. إنه وقت العبور، لم يكن القذيفة

الوحيدة، بل القذيقة رقم ٢٥.. نزل عن مستوى ٧٥٠ متر و. لم يحاول فتح مظلته.. و نزل عن مستوى ٥٠٠..٤٠٠..٣٠٠.. و عند المتر ال٥٠ المتبقي فتح سترته.. تناثر جسمه.. تحررت روحه و عبرت السماء.. كانت القذائف البشرية تتساقد كالمطر، لم تمنح سياسيا و لا عسكريا و لا دبلوماسيا لحظة ليفكر.. كانت الخطة أن يستمتعوا بحطام أجساد المتسابقين الفلسطينيين.. و لكن النسر لايسقط إلا ليصطاد، سقط النسور سقوطا حرا.. زأر الأسود زئيرهم الأخير.. تلاشى كل من في المخيم.. و بدأ عصر جديد لم تكن هذه إلا بدايته.. و انقلبت الموازين..